بلال يؤذن

بقلم: الشيخ محمد امين زين الدين

بنفسه الحفل ، ويكتظ الندي بالمجتمعين، ويعم الجمع صمت رهيب ، وسكون خاشع ، ومحمد يتحدث بصوت متزن الايقاع ، ساوى النبرات ، يأخذ بالقلوب قبل الاسماع ، ويمتلك العقول قبل النفوس .

وكأن المجتمعين من اهل طبقة واحدة ، قد سوت بينهم اخوة الدين الجديد ، وجمعتهم سياسة النبي الحكيم ، فلا فوارق ولا ممزات .

تلك هي الجامعة المثالية التي اسسها محمد يوم وصوله الى يثرب ، فهي مجلس التشريع ومحكمة العدل وهي هيكل العبادة. ومسجد الصلوة ، وهي مدرسة التهذيب . ومعبد الثقافة ، ومصدر جميع ذلك قرآن محمد وارشاده .

وللمسلمين كل يوم في ذلك المحفل اكثر من اجتماع واحد، تتزاحم فيه المناكب ، وتتطاول فيه الاعناق وترهف فيه الاسماع لاستجلاء حكمة جديدة ، واستطلاع رأي سديد .

يتحدث محمد ويشير ، والقلوب رهن اشارته وحديثه، والعيون تحصي كل لحة من طرفه ، وكل اشارة من كفه .

وينتهي النبي (ص) من حديثه فيسكت ، وسكوته اذن للقوم بالكلام ، فيبتدئون القول ويستعرضون في كلامهم أمر الصلوة ، وأي عمل عند المسلم اعظم من الصلوة ، واي حديث اشهى اليه من حديث الصلوة .

انها اجتماع ارواح ، وائتلاف ابدان وقلوب ، ثم هي تحول من حال الى حال وارتفاع من كون الى كون ، حيث يلتقي العابد بالمعبود ، ويتصل المخلوق بالخالق .

ويذهب القول شعوبا ، ويتخذ فنوناً وطرائق ، ثم يلتقي عند الاذان فيتسائل الحاضرون باستغراب .

إن لكل دين من اديان السماء شعاراً يبلغ اهله امر الصلوة ، فهلا يكون للمسلمين ما يشبه ذلك ، لقد خفنا أن يفوت البعض منا حضور الصلوة اذا أوكلناه الى الصدفة ولم لا يتخذ المسلمون احدى هذه العادات شعاراً لصلواتهم .

فيقول احدهم : اني رأيت ابواق اليهود ابلغ في ايصال الدعوة الى المصلين .

ويقول الثاني : ولكن ناقوس النصارى اشجى نغمة ، واكثر اتصالا بخشوع العبادة .

ويقول الثالث : ولكنا عرب قبل اليهودية والنصرانية فهلا نتخذ لصلاتنا ناراً كنار القرى ولنسمها اذا شئنا « نار الصلوة » .

ويقترح آخرون طرائق أخرى .

يقولون هذا ومحمد مطرق لا يفوه بشيء ، لان الوحي لم يزوده بشيء ، ولانه يكبر دينه ان تدخله امثال هذه العادات التي لا تشبه العبادة ، ولا تمت الى العقيدة .

ليكن نداء الصلوة نداء ارواح لانها اجتماع ارواح ، ولكن الوحي لم يأته بعد بشيء ، فهو مطرق .

وينفض الحفل ، والأذان يحديث كل فم ، وفكرة كل قلب ، وتمر على المدينة ليلة قلقة يتناول الرأي فيها كل أحد ، ويشترك في القول كل فرد ، لان الصلوة حق للجميع ، فالتفكر في شأنها من حقوق الجميع ، مادام النبي لم يصدر رأياً ومادام الوحي لم يعين امرا .

وينتهي الهزيع الاول من الليل ، فتسري في المنتديات همسة من الرجاء ، وتطوف عليها بارقة من الأمل ، انهم سيسمعون عند الفجر اول نداء للصلوة ، ولكن ماذا يكون ذلك النداء ، ويبيت الجميع في نشوة من الأمل وولع من الانتظار يتطلعون بشائر الفلاح عند الصباح .

ويتقلص ظل الليل الطويل ، وتبدو طلائع الفجر الاول تحمل تباشير النور ، فيزدحم المسجد الاعظم وتكتظ الشوارع القريبة ، وتمتليء الافنية والسطوح .

ماذا يتأمل هؤلاء المزدحمون . انهم ينتظرون نداء الصلوة .

عظمت الصلوة ، وعظم نداؤها ، وعظمت القوة التي تملك الموجودات قبل وجودها .

ويبتسم الفجر، فينطلق صوت بلال بالأذان الاول [الله اكبر] فتهتز قلوب ، وتجري دموع وترتفع الى السماء اصوات متشابكة هي مزيج من زغاريد النساء ، وتكبير الرجال .

ويبدو وجه محمد أمام المسلمين ، ويقيم الصلوة مؤسس الصلوة فترتد الانفاس وتسكن الاصوات ،

يقول التاريخ : الاذان رؤيا صالحة يراها عبد الله بن زيد ، ويقول الأئمة من اهل البيت الاذان وحي يتنزل من السماء

فهل لنا ان نصدق التاريخ اذا لم يعترف بصحته أهل البيت ، وهل لنا ان نجوز على النبي ان يعتمد في الاذان على على الرؤيا ، وهو المؤيد بالوحي فيما يقول وما يفعل .

الدين الاسلامي أبعد من ان يؤسس احكامه على الرؤى مهما كانت صالحة ، ومهما كان الرائي عبداً صالحاً .

ومن لنا ان نجعل رؤيا الأذان نوعا من انواع الوحي حجب عن محمد ليراه عبدالله بن زيد ، وسواء أكان الاذان رؤيا صالحة ام كان وحيا إلهياً ، فقد اصبح شعيرة من شعائر الدين ، واصبحت لبلال مكانة جديدة عند المسلمين يوم كلل جبينه وسام المؤذن الاول واعتمده الرسول اميناً على اوقات الصلوة .

يسمع المسلمون صوت بلال في اليوم الواحد خمس مرات ثم لا يزيد هذا التكرار أذانه الا طلاوة ، ولا يؤثر في قلوبهم الا لهفة وشوقا .

وتدول الايام فيقبض الرسول ، وينقطع الوحي ، ويختم القرآن ، وينقطع صوت داعي الارض لانقطاع صوت داعي السماء .

عاهد بلال نفسه ان يترك الأذان وفاء لنبيه ، ولابد له ان يفي ، ثم تمر ايام على ذلك العهد وقلوب المسلمين متعطشة الى صوت بلال .

وتمرض وحيدة النبي « فاطمة » فيعودها كبراء المسلمين ويأتيها الشيخ الوفي مع العائدين فترحب به ثم تقول : لقد اشتقت الى صوتك يا بلال :

فيطرق بلال ثم يبكي :

انه اقتراح عظيم على بلال ، ولكن لابد له ان يجيب ، لأن التي تقترحه هي وديعة النبي في الأمة .

لقد ترك الاذان وفاء لنبيه ، فليؤذن هذا اليوم وفاء لنبيه ايضاً .

ويخرج الشيخ ، فيشيع النبأ بين المسلمين ان بلالا سيؤذن هذا اليوم .

نعم سيؤذن بلال هذا اليوم ، ولكن أذانه اليوم غير أذانه بالأمس .

يشيع النبأ فتجتمع الأمة وتزدحم كازدحامها بالامس ، الا ان الفارق جلي بين اليومين ذن الدموع لاتشبه الدموع ، والخشوع لايماثل الخشوع .

وبلال ينتظر الوقت وهو مطرق ، لايدري أيحسن الاذان هذا اليوم ام لا .

ويجيل طرفه جولة في السماء فيعرف الوقت ، ثم يجهد ليؤذن فلا يستطيع .

وبعد برهة يرتفع صوته مزيجاً من البكاء والتكبير .

وتستحيل المدينة صرخة واحدة ، يشترك فيها عويل النساء وبكاء الرجال .

ويجيء النذير الى بلال ، إن وحيدة رسول الله قد ماتت ، فيقطع الاذان وينزل بين الحسرات والدموع .

لم تمت فاطمة يومئذ ولكنها ذكرى عهد حبيب تثير منها كامناً فتصعق ، والوجد اذا تضاعف قتل .

النجف

محمد أمين زين الدين

الى المدعين بالبرد

للشاعر الشهير السيد أحمد الصافي النجفي

ومتهى موجع بالبرد راسي ... يطير مدى الحياة له نعاسي
تعالى القرع من كل النواحي ... كأني منه في سوق النحاس
وقوم جامدين على كراسٍ ... تظن بأنهم بعض الكراسي
وتحسب أنهم خلقوا بلحم ... من الاخشاب قام على أساس
تراهم جالسين بلا حراك ... كأن الكل في دور النفاس
وغر لاعب بالبرد دوماً ... نقاسي منه دوماً ما نقاسي
وليس يضر قرع البرد منه ... برأس مثل صم الصخر قاس
متى قلت اتئد بالقرع وارفق ... فقد حطمت لي بالقرع راسي
ينادي إنني حر فدعني ... ولاتضعف بنصحك من حماسي
فقلت صدقت حر من ضمير ... ومن ذوق وعقل أو قياس
فخفف من حماسك بعض شيء ... ووفره ليوم وغى وباس
وهل حررت نفسك من عداة ... لهم أسلسلت من بعد الشماس
فعاشر ان تشأ احرار قوم ... لتفهم كيف تحرير الاناس

دمشق

أحمد الصافي